

طرق تحقيق الذات عند طاغور

للأستاذ عبد العزيز محمد الزكي

—•••••—

إن تعاليم الديانة الهندوكية تسلم بوحدة الكون ، وتفترض على كل هندوكي أن يعمل على إدراك هذه الحقيقة بجميوية حتى يؤمن بها عن صدق شعور . ولذلك كانت أسس غايات الديانة الهندوكية أن يجد كل هندوكي في تحرير روحه من نواقص الحياة ، وتنقية نفسه من شوائب الشهوة ، وتطهير عقله من أدران الفكر ، وتخليص أفعاله من دناءة الشر ، حتى يتسنى له أن يظهر الله السكامن في قرار النفس ، وبحسب بوحدة الكون الشاملة ، فيرتقى إلى أعلى درجات السكال الروحي ويحقق ذاته .

وتختلف المذاهب الهندوكية القديمة في نوع الطريق التي تحقق الذات ، فمنها من يرى أن مجرد حفظ الفيدا وإتقان تلاوتها ، وأداء الشعائر الدينية يكفل الوصول إلى السكال الروحي ، بينما لا يكتفي مذهب آخر بالأخذ بظاهر الفيدا ، ويطلب التعمق في نصوصها ، إذ هذا التعمق يساعد على معرفة حقيقة اتحاد الله بالنفس ، ويقود إلى تحقيق الذات . ويرى مذهب ثالث السكال الروحي في التمييز بين الروح والجسد ، وإدراك أن مطالب الروح مطالب حقيقية ، وأنبل وأرفع من مطالب الجسد الخادعة ، ثم تغليب سيادة الروح على الجسد . ولا يعترف مذهب رابع إلا بالطرق العملية ، فلا يتخذ إلا المجاهدات من تمذيب النفس وإيلام الجسم وسائل لتحرير الروح من الرغبات والشهوات . ويعتقد مذهب خامس أن تحقيق الذات يكون عن طريق تفسير مظاهر الكون وأحداث الطبيعة ومعرفة العلاقة التي تربطها بالله . ويمتدح مذهب أخير التأمل في الوجود وإدراك وحدته هي الغاية القصوى التي يجب أن يقصدها كل فرد .

إن كل هذه المذاهب بوسائلها المختلفة لتحقيق الذات تدلنا على أن الديانة الهندوكية تسمح لكل هندوكي أن يبرز الله السكامن في نفسه بالطريقة التي تنفق مع ميوله سواء أكانت دينية خالصة أم أخلاقية تهذيبية أو عقلية تأملية . ولقد بحث طاغور هذه الطرق في سورة تلامم الحياة المصرية ، وتجمل تحقيق الذات

مناحاً لكل فرد عن طريق العمل أو المهنة أو الفن الذي يزاوله . كما جعل من العلم والفن والعمل — وهي الأسس التي نهضت بالديانة الحديثة — الطرق الحية التي تتولى تحقيق الذات . ويمكن أن تلخص طرق تحقيق الذات عند طاغور في أربع طرق وهي :

أولاً : الزهد والتقوى والورع والمجاهدة .

ثانياً : البحث العلمي والكشف عن القوانين .

ثالثاً : الفن باختلاف فروع .

رابعاً : العمل بتنوع مجالاته الخيرة والنافعة .

أولاً : أما عن الزهد والتقوى والورع والمجاهدة ، فإنها تظهر الروح ، وتصق القلب ، وتنقى النفس من همجية الفرائز وبهيمية الشهوات . إلا أن طاغور لم يمد يستسيغ اعتزال الزهاد الحياة العامة ، واحتقارهم الأعمال الدنيوية ، لأنه يرى أن المجاهدات القاسية ، وتمذيب النفس التي تحرر الروح من عوائق المادة ، وتخلصها من أدران الحياة ، وتبهيء النفس لمعرفة حقيقة وحدة الكون ، لا تتعارض مع قيام الزاهد بعمل ما يعود على البشر بالخير والنفع . فضلاً عن أن الزاهد لا يستطيع أن يعيش حر الروح في عالم مجهول من الإحساسات النامضة ، والشاعر المبهمة ، والأفكار المظلمة المحبوسة جميعاً داخل النفس لا يسمح لها بأية فرصة للظهور في عالم الأعمال الجلي الواضح . فكان الزاهد من دون جميع البشر لا عمل له يسمي به لتقدم الحياة الأرضية ، بينما يقوم كل إنسان ممتاز بعمل ممتاز . فالعالم يعبر عن أفكاره بالقوانين العملية التي لها فضل كبير على الدنيا . ويشغل الفنان إحساساته ومشاعره بالموسيقى أو الفناء أو الأدب أو الرسم فيشبع في النفوس لذات روحية وسروراً طاهراً ، ويبذل كل رجل صالح جهوداً عظيمة لكي يخدم أهله أو وطنه أو الإنسانية ، فلم يشذ الزاهد عن أفاذا القوم ولا يقوم بههل إنسانى يطلق به ما يحبسه في نفسه من أفكار وإحساسات ومشاعر ، ويقنع بأن يحقق ذاته وهو بعيد عن الحياة ، كارهاً أن يخوض مشاكلها ، نافرماً من أن يسام بصيبه في خدمة ركب الحضارة الإنسانية .

ثانياً : يؤكد طاغور أن العالم الذي يعمل على كشف القوانين الطبيعية يمكنه أن يحقق ذاته ، وذلك إذا تحررت براحت البحث العلمي من أى فضول ثقافي يطلب مجرد معرفة سيرحوادث الطبيعة

فيصرى السرور في نفوس الناس ، ويحسون بدورهم حقيقة اتحاد الخليفة بالله .

كما أن الفنان لا يستطيع أن يدرك جمال الطبيعة على حقيقته إلا إذا سمت نظراته إلى الأشياء ، فإنه لا يستطيع أن يدرك جمال الروح إلا إذا سيطر قانون طبيعته الأخلاقية على نفسه ، وخلصت من طغيان كل غريزة وشهوة ، وصفت من شوائب كل نفس وضعف ، حتى يمكن أن تظهر له مزايا الروح في ثوب خلاب بديع ينسجها الخير والحب ، وينجلي في ثناياه روح الله الكبرى التي تربط كل روح بأخرى وتشملها جميعاً . ومن يتم له ذلك يشعر بسعادة تفرهه بالسلام والأمن ، وتحمته على أن يمبر بفرقه عما يشعر به من غبطة وحبور ، فيكشف عن جمال الفضائل الروحية ويشجع الناس على تقيف الروح ، ويدعوهم إلى فعل الخير وتجنب الشر ، ويصف لهم سمو استقامة الخلق ونبل تشبث المرء بالثقل الإنسانية ، ويرفع من قيمة تضحية الفرد في سبيل المجموع ، ويشيد بذكر الحب الذي يجمع بين القلوب ويفيض على الإنسانية بالعلم نيتة والمهدوء ، وذلك كله يظهر روح المحبين للفنون وبهيم لهم سبل تحقيق اتحادهم الصادق بالله . فالن إن إذا مدرسة مملوها قوم نوصلوا إلى تحقيق ذاتهم ، ويعلمون الناس كيف يفوزون بوحدهم مع الله .

رابعا : يلزم طاعور كل فرد بأن يقوم بعمل مفيد أو خير ، إذا أراد أن يحقق ذاته . ولا يفتى عن أداء ذلك العمل طهارة روحية أو سيادة القوانين الأخلاقية على النفس ، لأن الطهارة الروحية والتمسك بالأخلاق والتأمل بالفضائل ، وإن كانت ضرورية لتحقيق الذات ، ليست كافية ، وتتطلب عملا يؤكد وجودها ، ويصدق على صحتها . ولذلك وجب على كل هندوكي أن يؤدي عملا مفيدا في سبيل الله ، ويمود بالخير على أهله أو وطنه أو الإنسانية جماء بدون أن ينتظر من ورائه نفعا شخصيا ، ولا يقبل على فعله خوفاً من تهديد جوع أو قوة الفقر أو بضغظ أي دافع مادي آخر ، وإلا أصبح عملا باعته رغبات نفعية وشهوات غريزية تفوق تحقيق الذات .

فكل من يطلب الله يجب أن يعمل عملا باعته شريف يفيد به الناس لأن العمل الشريف المفيد يخرج الفرد من دائرة أنانيته

وتطورها معرفة منطقية ، أو إذا خلصت من كل مأرب استقلالي برى إلى استخدام ما يتوصل إليه من قوانين في المنافع الشخصية أو الفوائد المادية ، إذ مثل هذه البواعث تحجب عن العالم حقيقة الظواهر الطبيعية ، فيغيب عنه ما وراء قوانين هذه الظواهر من حقائق ، ولا يتوصل إلى معرفة علاقة قوانين الطبيعة بحقيقة اتحاد الوجود ، فيجهل أنها ملامح مختلفة لقانون واحد ، أو أنها حقائق صغرى متعددة لحقيقة كبرى واحدة هي قانون اتحاد الكون بكامل محتوياته بالله . أما إذا خلصت بواعث البحث العلمي من كل غرض ما عدا طلب معرفة الحقيقة الكبرى ، فإن بحث العالم وراء قوانين الطبيعة يقوده حتماً إلى كشف الوحدة التي تربط هذه القوانين بقانون الحياة الأول ، ويعلم باتحاد شتى مضمونات الطبيعة المتنوعة ، ويحس بأن هناك جسما عالميا واحداً يشمل كل ما في الطبيعة بما فيها جسمه ، ويشعر بأن جسمه ما هو إلا امتداد لجسم الطبيعة ، وليس هناك إلا حقيقة واحدة . وبذلك يحقق البحث العلمي ذات العالم ، كما أنه يهدي كل من يلم من عامة الناس بالقوانين الطبيعية إلى إدراك وحدة الوجود ويساعده على تحقيق ذاته .

بالفأ : إن موضوعي الفن عند طاغورها جمال الطبيعة وجمال الروح . أما من جمال الطبيعة فلا ينتم به إلا من صفت بصيرته ، وتحررت روحه من سيطرة الرغبات السادية وإلحاح الشهوات الاستقلالية التي لا ترى في الأشياء غير النفع والقائدة فتعزم الروح من التمتع بالجمال البادي في الكون ، وتغنى عنها حقيقة ذلك الجمال الذي يمشه الله في الأشياء ليكون رسوله للناس في الأرض ، وعلامة على اتحادها بالطبيعة ، حتى إذا ما تأمل بشر وهو طليق الروح طاهر النفس أي شيء في الوجود أحس بما فيه من جمال ، وما بين أجزائه من انسجام ، فيشعر بجمال توافق الكون ، وبروعة حقيقة وحدة الوجود . وكلما قوى شعور فرد بهذه الوحدة في عالم الطبيعة عظم إحساسه بسرور بلهب عواطفه الطاهرة وبشير وجدانه النقي ، فيمبر عنه بالموسيقى إذا كان يؤلف الألحان ، وبالشعر إذا كان شاعراً ، وبالرسم إذا كان رساما ، ويترجم الناس موسيقاه أو شعره أو رسمه إلى ما يحسه الفنان من سرور مرمدى ، ثم إلى ما يدركه من حقيقة وحدة الكون ،

ويدفعه لخوض معترك المجتمع الإنساني ، فيعرف ما يربطه به من علاقات وثيقة ، فتتمو فيه خبرية روحية تشمره بأن له فيها يضم المجتمع البشري بأكمله ، يجب أن يسمى لإسماده مهما تحمل من كفاح متعب قد يمرضه لمختلف الآلام ، وينزل به أفدح الخسائر كما تشمره بأن له نفساً تشمل الحياة الإنسانية من جسيم نواحيها يجب أن يبذل حياته رخيصة من أجل مصاحبتها ، ويرحب بالاضطهاد والسجن والحرمان والمذابح حباً في خيرها .

ومن يؤد مثل هذه الأعمال العظيمة ، فقد صار في الطريق القويم الذي يظهر له حقيقة الكبرى المقيمة داخل نفسه ، فتأخذ روحه في الارتقاء في سلم الكمال الروحي ، وتعلو إلى أرفع درجات الحياة التي تنتمي فيها الحقائق المتناقضة فتستعذب النفس الألم في سبيل الإنسانية ، وتسمد بالحرمان في سبيل الخير . وهكذا يتبادل المرور والألم ، ويصيحان حقيقة واحدة في حب الإنسانية ، كما تتساوى المنمة والحرمان في فعل الخير . وحين تبلغ النفس هذه المرتبة من السمو تكون قد تحررت تحريراً تاماً من كل ما يتصل بالحياة الدنيوية ، ووعت أن هناك وجوداً أكبر خارجاً عن وجودها ، فتعرف الحقيقة الخالدة ، حقيقة وحدة الكون الشامل الذي يتجلى الله في جميع أجزائه .

عبد العزيز محمد الزكي
مدرس الآداب بمدرسة صلاح الدين الابتدائية
بمكة المكرمة

فالدن والمالم والفن والمعمل الخير كلها وسائل طيبة تحقق الذات ، وعلى الهندوكي أن يختار منها الطريق التي تلائم مزاجه ويسلكها ، فإنه حينما سيصل إلى غايته الدينية إذا كانت بواعث سلوكه فاضلة ، لا تنفذ على النفس صمها إلى الكمال ، أو يحجب عنها معرفة الله الوجود في أعماقها . وإذا حاولنا أن نبحث عن الشخصيات التي سلكت هذه الطرق وحقت ذاتها ، فإنه من الصعب أن نجد لها خارج موطن طاغور نفسه . إن زهاد الهند القدماء يمثلون لنا بلا شك تلك الشخصية التقية الورعة الصالحة الخيرة ، التي تتحمل طراعية آلام الجسم وعذاب النفس تطهيراً للنفس ، وإعداداً لإفنائها في الله الذي يوجد في قرارها وفي جميع الخلوقات . أما عن شخصية العالم الباحث عن القوانين الذي نجح في تحقيق ذاته فليس له وجود . وأحسب أن طاغور قد تصور العالم على ما يجب أن يكون عليه ، لا كما يوجد بيننا الآن ، لأنه يرى أن سبب كلف العلماء بكشف قوانين الطبيعة ، إما أن يرجع لجرد فضول علمي يرغب في معرفة سير أحداث الطبيعة وتطورها والوقوف عند حد هذه المعرفة بدون محاولة التدرج منها إلى حقيقة

يفيد القاضى والمتقاضى والمحامى والفقير كتاب

مبادئ في القضاء الشرعى

للأستاذ الزين القاضى

يطلب من دار الرسالة بالقاهرة

ومن الأستاذ على عبد الله بالنصورية

وثمنه ٢٠ قرشاً هذا البريد